المحاضرة الثالثة

ثانيا: (نظرية العقد الاجتماعي)

استخدمت فكرة العقد كأساس لنشأة الدولة منذ فترة زمنية بعيدة . غير إن نظرية العقد الاجتماعي لم تحتل مكانة خاصة في الفكر السياسي إلا في خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر على يد عدد من المفكرين في أوربا ، كان أبرزهم : هوبز ولوك وروسو . وقد اتفقت النظريات التي قال بها هؤلاء المفكرون على إرجاع نشأة الدولة إلى فكرة العقد ، وإن الأفراد انتقلوا من الحياة البدائية التي كانوا يعيشونها إلى حياة الجماعة المنظمة بموجب عقد . وفيما عدا ذلك ، اختلفت فيما بينها نظرا لاختلاف التصورات الخاصة بكل نظرية بشأن حالة الفطرة السابقة على العقد ، وأطراف العقد ، ومضمون العقد ، والنتائج المترتبة على عملية التعاقد . وسوف نعرض لوجهة نظر كل من هؤلاء المفكرين الثلاثة بشأن الأصل التعاقدي للدولة.

١- نظرية العقد الاجتماعي عند توماس هوبز :

أ-حالة الإنسان الفطرية -قبل العقد -: يرى (هوبز) إن حياة الإنسان الأولى كانت تتسم بالفوضى والاضطراب وعدم الاستقرار نتيجة الصراع الدائم الذي يجعل السيادة لقانون الغاب فالغلبة للاقوياء والذل والهوان للضعفاء ، ذلك لأن الإنسان أناني بطبعه تحركه الشهوة والأطماع والرغبة في السيطرة على الآخرين . وللخروج من هذه الحال من اجل الامن والاستقرار أدرك الأفراد ضرورة الاتفاق فيما بينهم على اختيار شخص يحكمهم، فكان السبيل إلى ذلك هو العقد .

ب- أطراف العقد: يعتبر (هوبز) أن العقد قد أبرم بين جميع الأفراد ما عدا شخصا واحدا (الذي اختاروه حاكم) فالحاكم لم يشترك في العقد ، وإنما قام الأفراد باختياره ، وعهدوا إليه بممارسة السلطة.

ج-مضمون العقد ونتائجه :

يرى (هوبز) **أن** الأفراد اتفقوا فيما بينهم على العيش معا في سلام ، تحت سيطرة واحد منهم ، يتولى الدفاع عنهم وحماية الحياة المنظمة الجديدة ، مقابل التنازل له عن جميع ما يتمتعون به من حقوق طبيعية وبما ان الحاكم ليس طرفا في العقد فسلطته تكون مطلقة ولا يعد مسؤولا امام

الافراد . فتبعا لذلك العقد عند (هوبز) لا يكون ملزم من جانبين ، وإنما العقد ملزم من جانب واحد ، وهم الأفراد ، وذلك لأن العقد قد أبرم بين الأفراد وحدهم ، وأن كل فرد تعاقد مع غيره أبناء جنسه لصالح شخص الحاكم . بالتالي فإن العقد يلزم الأفراد بما يتضمنه من واجبات دون أن يلزم الحاكم بشيء . **النتائج المترتبة** : ويرمي (هوبز) من وراء هذا التصوير للعقد الاجتماعي إلى الوصول إلى نتيجة محددة ، تتلخص في أن الحاكم يتمتع بسلطة مطلقة على الأفراد ، لأنه لا يلتزم إزائهم بأية تعهدات ، نظراً لعدم اشتراكه في إبرام العقد ومن ثم فهو يبرر الحكم المطلق وهذا التبرير من قبله متوقع كونه من انصار الملكية في إنكلترا.

٢- نظرية العقد الاجتماعي عند جون لوك :

أ-حالة الإنسان الفطرية (قبل العقد) :

يذهب (لوك) إلى إن الإنسان خير بطبعه ، وإنه كان في حالة الفطرة ، يحيا في سلام يتمتع بحرية كاملة ، في ظل القانون الطبيعي . وعلى الرغم من إن الإنسان في حياة الفطرة كان في حالة تسودها الحرية والمساواة ، إلا أنها لا تخلو من مساوئ . فحالة الطبيعة لا تضمن للفرد أن ينعم بحقوقه فعلا لأن الالتزام الدقيق بأحكام القانون الطبيعي لا يتحقق دائما ، ولأن الجماعة لا توفر الحماية اللازمة للأشخاص والأموال من احتمالات الاعتداء عليها . لذلك يلجأ الأفراد إلى التعاقد فيما بينهم لإنشاء جماعة سياسية وإقامة سلطة تحكمهم ، يكون لها تنظيم الحقوق الطبيعية التي كان يتمتع بها الأفراد في حياة الفطرة ، وإقامة العدل عن طريق توقيع الجزاء عند الاعتداء على هذه الحقوق .

ب-أطراف العقد :

يذهب (لوك) إلى إن الأفراد الذين يريدون أن يدخلوا حياة الجماعة السياسية يقومون باختيار الحاكم ويبرمون معه عقدا . فالعقد يتم بين طرفين : الأفراد من جانب و الحاكم من جانب آخر .

ج-مضمون العقد ونتائجه :

يرى (لوك) أن الأفراد تعاقدوا مع الشخص الذي اختاروه ليتولى مهمة الحكم في الجماعة، وتم التنازل له بمقتضى هذا العقد عن جزء من حقوقهم في سبيل قيامه بأعباء الحكم وحماية حقوق الجميع ، وتأسيس سلطة سياسية مركزية ، تكتمل بقيامها نشأة الدولة. فالاتفاق ، إذن ، تم

بين الأفراد من جانب و الحاكم من جانب آخر . وهذا العقد يقوم على الرضا المتبادل . وهو عقد ملزم لجانبين ، حيث يلتزم بموجبه كل من الحاكم والمحكوم تجاه الآخر بالتزامات متبادلة. فالحاكم ، يلتزم بمقتضى العقد ، بتنظيم حياة الجماعة ، والمحافظة على الحقوق التي لم يتنازل عنها الأفراد ، وإقامة العدل بينهم . ويلتزم أفراد الشعب بواجب الطاعة تجاه الحاكم ، طالما أنه يعمل في الحدود المقررة للعقد . وإذا أخل الحاكم بالتزاماته المقررة في العقد بأن عمل على تحقيق الحكم المطلق له ، أو بالإخلال بحقوق الأفراد وحرياتهم ، كان للأفراد ، الحق في مقاومته ، وعزله من منصبه ،لإخلاله بشروط العقد الاجتماعي ،لذلك دافع لوك عن ثورة ١٦٨٨ التي وقعت في إنكلترا ضد الملك جيمس الثاني ،**تبعا لذلك يمكن القول ان لوك كان من انصار الحكم المقيد** .

٣- نظرية العقد الاجتماعي عند جان جاك روسو

أ- حالة الإنسان الفطرية

يرى (روسو) **إن** الإنسان كان في حالته الفطرية الأولى متمتعا بالحرية والاستقلال التام والمساواة ، ولكن حياة الفطرة عند (روسو) ليست كما اعتقد البعض أسعد حالة للحياة البشرية . فالمساواة الطبيعية ما لبث أن أخل بها ظهور الملكية الخاصة ومخترعات الإنسان من الآلات الميكانيكية ، وأدى التفاوت الكبير في الثروات إلى قيام الخلافات والتنافس والحروب ، وتحولت سعادة الإنسان إلى شقاء . لذا عمل الأفراد على التعاقد فيما بينهم لإنهاء الخلافات ومنع الاضطرابات في علاقاتهم ، والانتقال إلى حياة أفضل ، حياة مجتمع منظم يسود فيه العدل والفضيلة ، ويحافظ على حقوق وحريات جميع الأفراد.

ب-أطراف العقد :

تصور (روسو) ان الافراد (الطرف الأول في العقد) تنازلوا عن حقوقهم الى هيئة عامة(الطرف الثاني في العقد) تشمل جميع الافراد يطلق عليها (الإرادة العامة للشعب) ولهذا فإن الحاكم ليس طرفاً في العقد ، وإنما هو وكيل عن الإرادة العامة ، يحكم وفقاً لإرادتها ، وليس وفقا لإرادته الخاصة .

ج-مضمون العقد ونتائجه :

يرى (روسو) إن الأفراد يتعاقدون مع أنفسهم ، فلكل منهم صفتان ، صفة الفرد الحر المنعزل، وصفته كعضو في الجماعة متحد مع غيره . ويتضمن العقد ، التنازل الكامل ، من كل فرد ، عن جميع حقوقه ، لصالح الجماعة . ويلزم أن يكون التنازل بدون تحفظ ، حتى يتم الاتحاد في أكمل صورة . ويضاف إلى ذلك ، إن كل فرد يتنازل عن كافة حقوقه لا لشخص معين بالذات ، أو لأشخاص معينين بذاتهم ، وإنما التنازل لصالح المجتمع بأكمله ،فيصف الحكومة بأنها(هيئة وسيطة بين الرعايا وصاحب السيادة مكلفة بتنفيذ القوانين والمحافظة على الحرية المدنية والسياسية على سواء.)

تقدير نظرية العقد الاجتماعي : لقد كان للنظريات العقدية دورا مهما في تطور الفكر السياسي ، ولكنها مع ذلك تعرضت لعدة انتقادات أهمها :

١- تعتبر نظريات العقد الاجتماعي نظريات خيالية لا سند لها من الواقع . حيث إن التاريخ لم يعطنا مثالا واحدا واقعيا بان جماعة من الجماعات قد نشأت بواسطة العقد .

٢-من الصعوبة تحقق اتفاق جميع الافراد على ابرام العقد .

٣- تفترض بعض النظريات العقدية سالفة الذكر إن الإنسان كان يعيش في حالة عزلة قبل أن .

بالرغم من الانتقادات الموجهة للنظرية العقدية غير انه كان لها الدور الأساس في نشر الوعي ضد النظم الاستبدادية ،فكان لأراء روسو على رجال الثورة الفرنسية تأثير واضح في تقييد سلطان الحاكم وأرساء فكرة مبدأ سيادة الامة.